نوابغ الفكر العربي

٧

إخوان الصفاء

بقلم الدكتور جبور عبد النور

الفصل الأول

عصر إخوان الصفاء

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية

نشأ إخوان الصفاء حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى، بعد أن عصفت بالخلافة الإسلامية أيدى الحدثان[1]، وتقسمها أمراء وملوك، ولم يبق للعباسيين إلا بعض نفوذ فى ما يطيف ببغداد، أو فى توزيع الألقاب على أصحاب السلطة الفعلية.

ساد بنو بويه على فارس والرى وأصبهان، وسيطر الحمدانيون على الموصل وديار بكر وربيعة ومضر، واستأثر الفاطميون بالمغرب وإفريقية، وتسلط الأمويون على الأندلس، والقرامطة[2] على اليمامة والبحرين، والديلم[3] على طبرستان وجرجان. والقليل من المتملكين على هذه الأقطار من اعترف للعباسيين بالسيادة. فقد أصبح فى الإسلام ثلاثة خلفاء فى وقت واحد: أحدهم فى العراق، والثانى فى شمالى إفريقية، والآخر فى إسبانيا. ودارت الإمارات الصغيرة فى فلك هؤلاء مستوحية فى ولائها مصلحة الأسر الحاكمة.

---

(١) حدثان الدهر: نوائبه.

(٢) القرامطة: هم الباطنية الذين يعتقدون عقائدهم سراً فيتداولونها مع أتباعهم ويظهرون خلاف ما يبطنون. وأصل دعوتهم جماعة منهم عبد الله ميمون القداح ومحمد بن الحسين المعروف بدندان قبض عليهم المأمون وأودعهم السجن فلما خلصوا تفرقوا فى البلاد. ومن أتباعهم حمدان بن الأشعث وهو حمدان قرمط الذى نشر الدعوة فى البحرين وكان رأس القرامطة وانتشرت فتنته زمناً طويلا وكثر أتباعه وحاربوا جيوش الخلفاء العباسيين وتغلبوا عليها. ويقال إن القرامطة أخذوا مذهبهم من صابئة حران الذين يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم.

(٣) الديلم: الجزء الجبلى من جيلان غربى أذربيجان وتسكنه قبيلة تعرف أيضاً بالديلم. وكان ملوك الديلم يمدون الخلفاء العباسيين بالجنود المرتزقة وهم الذين تولوا بزعامة أحمد بن بويه خلع الخليفة المستكفى سنة ٣٣٤ هـ

كان التنافر السياسى والفكرى على أشدّه ، لأن معظم هذه الحكومات مهدت لظهورها بدعاوة دينية ، فقسمت المسلمين إلى فرق تتقارع[١] بالسيف والكلام ، وقامت الحواجز بين أجزاء الخلافة القديمة ، وعملت كل أسرة على توسيع رقعة نفوذها بالتضييق على خصيمتها[٢] ، فبثّت الدُّعاة ، ونثرت الأموال ، وشجّعت الثائرين فى البلدان المجاورة لها .

سبق دخول بنى بويه بغداد عام ٣٣٤ هـ انتشار الفساد فى الحكم بحيث كانت أيام الخليفة المقتدر أسوأ ما عرفه تاريخ العرب . غلبت كلمة جوارى القصر وخدمه على كلمة القواد والأمراء ، وأنفقت الأموال العامة فى غير وجوهها ، وولى الوزارة جماعة من المضللين الذين أرضوا رجال الخليفة وأمه بما بذلوه من الرشوة على أمل أن يستعيدوا ما أنفقوه أضعافاً مضاعفة ، وتقلص نفوذ الخليفة فيها من بعد وأصبح رئيساً دينيًّا مجرداً من كل سلطان فعلى ، ليس لديه من الموظفين سوى كاتب يدير أملاكه .

لم تكن هذه الحالة سوى نتيجة طبيعية ومحتومة للثورات المتتابعة التى تعاقبت على الخلافة ، فأغرقها أصحاب الأمر فى الدماء عوضاً عن أن يتلمسوا ما ترتكز عليه من نقمة ، فيزيلوا أسبابها ، ويعدّلوا النظم الفاسدة السائدة آنذاك . فالقلق الاجتماعى تسرّب إلى كثير من الطبقات العاملة فى المدن والمزارع ، عرباً كانوا أم أعاجم ، والثروات والسلطات تجمعت فى أيدى جماعة من الفاسدين الذين فقدوا كل إحساس بالعدل والاستقامة ، فجعلوا مثلهم الأعلى فى الحياة ، إرهاق الضعفاء والتفنن فى إذلالهم والمغالاة فى الترفّه . ولقد تعددت الانتفاضات الاجتماعية منذ ابتداء العهد العباسى ، فنشطت الجماعات الفارسية ، ومن انضم إليها من العناصر الناقمة والمظلومة ، وتمثلت نقمتهم فى ثورة الخرّمية[٣] . وتبين لهذه الفئات بعد إخفاقها فى تحقيق

(١) قارع وتقارع القوم : ضارب بعضهم بعضاً .

(٢) الخصيم : المخاصم .

(٣) الخرمية : فرقة ظهرت فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، وثارت على العباسيين . تزعمها بابك الخرمى . وقد قبض عليه الخليفة المعتصم وقتله سنة ٢٢٣ هـ . آمن أتباع هذه الفرقة بالتناسخ ، ونادوا بالإباحية .

أهدافها الاشتراكية بحد السيف ، وتألب القوى الرجعية فى وجهها ، أن أفضل سبيل إلى بلوغ غايتها هو اعتمادها الدعوة السرية ، وإعداد الأذهان لثورة فكرية تستتبع المكاشفة بحقيقتها بعد إذ تكتمل لها عوامل النجاح . وتمثلت النقمة فى مظاهر مختلفة ، وتحت أسماء متعددة ، ولكنها تلاقت فى نقاط مشتركة ، منها الثورة على الدولة الحاكمة ، والسعى لتعديل نظام الطبقات الاجتماعية ، وتحسين حالة المزارعين والعمال ، ثم الاستهانة بالعقيدة الدينية الرسمية ، والاتفاق على أنها الوسيلة الفعالة التى استخدمها السلطان الفاسد فى ترسيخ قدمه . وفى مطلع القرن الرابع الهجرى ، أى فى عام ٣١٧ هـ بلغ من نقمة إحدى هذه الفرق أن دخل رجالها مكة فى موسم الحج وسلبوا الناس أموالهم ، وقتلوا بعضهم ، واقتلعوا الحجر الأسود وطرحوا الجيف فى بئر زمزم ، وانتزعوا الكسوة وتوزعوها بينهم[١] .

كان الناقمون يتسترون بالتشيّع ، فيدّعون فى معظم الأحيان أنهم يعملون فى خدمة آل البيت ، ويمزجون آراءهم الدينية بنظريات الفلاسفة وعقائد الأديان القديمة ، ويخرجون من هذا المزيج بتعاليم جديدة يبثونها فى البيئات الإسلامية ، وينظمون أتباعهم تنظيماً دقيقاً ، ويوزعونهم حلقات بحيث يتيسر تدريبهم والاتصال بهم عند الحاجة .

ومن أشهر الجماعات السرّية التى نشطت آنذاك جمعية إخوان الصفاء . سعت فى كسب الأنصار ، وتأليبهم حولها ، ووضعت المؤلفات الفلسفية الدينية ، وبثتها بين طلاّب الحكمة ، وسهلت لهم الاطلاع على خفايا الشرائع . وهى تحتلّ فى تاريخ الفكر العربى مقاماً رفيعاً ، وتمتاز بأن أعضاءها سعوا إلى الإصلاح الاجتماعى والدينى إلى جانب ما قاموا به من تبسيط العلوم ونشرها فى بيئتهم .

(١) أقدم على هذا العمل زعيم قرامطة البحرين أبو طاهر الجنابى . وعندما عرف المهدى عبيد الله العلوى الفاطمى فى شمالى إفريقية بالأمر كتب إلى الجنابى يلومه على فعله ، فأرجع الحجر الأسود إلى موضعه ، ورد بعض الأسلاب إلى أصحابها .

الفصل الثانى

إخوان الصفاء فى عصرهم

١ ـ نشر الدعوة

يوجه إخوان الصفاء جلّ اهتمامهم إلى بثّ الدعوة بين الفتيان ، لاعتقادهم أن الإنسان فى مثل هذا الطور من الحياة قابل للتكيف والتخلق بالجديد من العادات ، إذ يكون ذهنه خالياً من العقائد والنظريات « كمثل ورق أبيض نقى لم يكتب فيه شىء[١] » ، ويرون أن الفتوّة شرط رئيسى لترسيخ الدعوة . ويستشهدون على ذلك بأن الله ما بعث نبيًّا أو رسولا إلا وهو فى سن الشباب. أما الشيوخ والمتقدمون فى العمر فإن الدعوة الموجهة إليهم تذهب أدراج الرياح : لا تقوى بلاغة ولا حجّة على اقتلاع ما غرس فى نفوسهم ، وما هرموا عليه من الآراء الفاسدة . يتعبون ولا ينصلحون ، وإن صلحوا قليلا لا يفلحون . ويدعمون رأيهم بأن أول من يقوم فى وجه أصحاب الأديان مشايخ قومهم ، ولا ينصرهم إلا الفتيان أصحاب الأذهان الصافية .

يسعى الإخوان جاهدين فى اكتشاف العناصر الفتية الموافقة لدعوتهم ، فإذا عثروا على فتى تتوافر فيه شروطهم استبشروا خيراً ، وعمدوا إلى أساليبهم الخاصة فى عَجْم عوده[٢] ، والوقوف على ميوله ودراسة خلقه وبيئته وعقائد أهله ، واستعداده ليكون واحداً منهم يؤتمن على بعض أسرارهم . فإذا اجتاز هذه المرحلة من التدقيق فى خلقه ، وقفه الأخ المعنىّ به على مقاطع من رسائلهم المعروفة ، وباحثه فى الأمور الواردة فيها ، دون أن يقطع فى واحد منها ، مؤجلا

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ١١٤
(٢) عجم العود : عضه ليعلم صلابته من رخاوته .

الحل النهائى إلى ما يتلوها من رسائل أو من كتب خفية يستأثر بها الإخوان فى مجالسهم الخاصة . ويكون الاتصال التمهيدى وسيلة بارعة للإكثار من التساؤل ، وإثارة الفضول ، وترقب الحلول ، والتشوق إلى المستقبل ، حتى تبلغ الرغبة فى نفس الفتى الأوج[١] ، ويعتقد أن كل مغلق من أسرار الكون والإلهيات سينفتح له إذا ولج باب الجمعية . وهذا الطور يطلق عليه الإخوان اسم « تصفية النفس » ، وفيه ترويض محتوم على كل من أراد الانتماء إليهم ، ومشاركتهم فى الجلسات التى يعقدونها . وهم يوصون المتمرسين بالمسؤوليات منهم بأن يثقفوا المريدين ويهذبوهم قبل أن تكشف لهم « أسرار الحكمة » ، لأن الحكمة كالعروس تريد لها مجلساً خالياً ، ومثل المفكر الذى يكشف أسرار الحكمة قبل التمهيد لها بهذه المقدمات الضرورية مثل حاجب ملك أذن لقوم بُلْه فى الدخول على مولاه من غير تأديب ولا ترتيب ، فهو يستحق العقوبة[٢] .

٢ـ نظام الحلقات

من المعروف أن الإخوان انقسموا حلقات « طوائف » ، يختلف عدد المنضمين إلى كل واحدة منها باختلاف المدن أو القرى ، وأن الإدارة المركزية ندبت لكل طائفة أخاً وثقت من بصيرته ومعارفه وخلوص عقيدته لينوب عنها فى توجيه الأفراد ، وإعداد أذهانهم ووقفهم على ما يجب أن يعرفوه من أمورها. وفى الرسائل مقاطع كثيرة تشير إلى تكليف بعض الأفراد القيام بهذه المهمة[٣] . ومنها يتبين أن اهتمام الإخوان توجّه إلى الفتيان المنتمين إلى الطبقة المتنفذة من أبناء الحكام والتجار والفقهاء والعلماء وأرباب الأموال[٤] . وكان المدبرون يطلعون المركز الرئيسى على كل ما يستجدّ لديهم من أمور ، وينقلون إليه أسماء الأشخاص الذين يتّصلون بهم ، وينوون ضمهم إلى الجمعية ، ثم

(١) الأوج : العلو
(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ٨٠
(٣) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧
(٤) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٣٧

ما يلاقونه من نجاح أو عقبات فى دعوتهم . وكثيراً ما يرد الجواب فإذا فيه توجيهات حكيمة مفصلة للأسلوب الذى يجب اتباعه فى مداراة هذا أو ذاك من الفتيان . وفى الرسائل مقاطع تتضمن مثل هذا الكلام : « قد فهمنا أيها الأخ الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه ، ما ذكرته مما جرى بينك وبين أخ من إخواننا من المذاكرة والبحث عن مبادئ الموجودات ، وعلل الكائنات ، وما شكوت من صعوبة انقياده إليه من صفوة الأخوّة والمعاونة على نصرة الأديان النبوية ، وما وصفت من شدّة استغراقه فى الآراء الفلسفية وإعراضه عن معرفة أسرار الكتب الإلهية . . . فاصبر عليه أيها الأخ ، وداره بالرفق ، وذاكره بهذه الرسالة فلعله يتقرّر فى نفسه ما تدعوه إليه »[١] .

غير أن الاختلاف فى الرأى ليس معناه فى معظم الأحيان نفوراً من مذهب الإخوان لاعتقادهم أن الجدل الذى يشيع فى الحلقات وسيلة من الوسائل المستخدمة فى الإقناع وتفتيح الشهوة للخوض فى الكلام ، وتخريج المذاهب . أما إذا استشرى[٢] الخلاف ، وأدى إلى خروج العضو من الجماعة بعد أن يكون قد أقسم بالوفاء لها ، فإن الإخوان يتبرأون منه ، ويدعون الاستعانة به فى أمورهم ، ويمتنعون عن معاشرته فى معاملتهم ، ولا يكلمونه فى علومهم ، ويطوون دونه أسرارهم ، ويوصون جميع الأعضاء بمجانبته[٣] . ولعلهم يعمدون أيضاً إلى وسائل فعالة غير هذه يضمنون بها كتمانه بعض الأسرار التى وقف عليها ، غير أننا لا نجد فى الرسائل إشارة إلى استخدام العنف ، وإن كانت هذه الوسيلة من الأمور الممكنة التى لا يستبعد استخدامها فى مثل هذه الظروف .

أما إذا خلصت النيات ، ووفى العضو بقوله وعمله ، وآنست الجماعة منه صدقاً فى العقيدة ، فإنها تحيطه برعايتها ، وتمهد أمامه الصعوبات ، وتأخذ بيده فى حياته العملية ، وجهاده الفكرى . ويفيدون من صلاتهم الكثيرة مع أصحاب السلطان ، ومن انتشار الأعضاء فى كل مكان ، ولدى المتنفّذين ،

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦
(٢) استشرى الخلاف : تفاقم وعظم .
(٣) الرسائل : ج ٤ ، ص ١٨١ .

ليأخذوا بيد إخوانهم . فإن كان العضو ممن يخدم السلاطين ، ويتصرف فى أعمالهم أوصوا الإخوان الذين يلازمون السلاطين والملوك بالثناء عليه ، وإذا كان من المتموّلين وأصحاب الضياع والأملاك يوصون المتولين للمناصب بصيانته وحسن معاملته ، وكف الأذية عنه ، وإن كان من الفقراء المعوزين يؤاسونه بما يتيسر لديهم من المال ، وإن كان من طلاب العلم يقفونه على ما يبلغه مراده[١] . وكثيراً ما يوصون من رزق المال ، ولم يعط العلم أن يطلب أخاً ممن وهب المعرفة ويضمه إليه فيؤاسيه ذاك من ماله ، ويرفده هذا من علمه ويتعاونان جميعاً على إصلاح أمر الدين والدنيا[٢] . وهكذا تشتدّ الأواصر بين الأعضاء ، ويحس كلّ فرد منهم ، كبيراً كان أم صغيراً ، غنيّاً أم فقيراً ، متنفذاً أم مستضعفاً ، أن جماعته تسانده فى الشدائد ، وتأخذ بيده لتحقيق أهدافه ، وردّ كيد الأعداء . ويقوّى هذا الشعور فيهم اعتقادهم أنهم يؤلفون كياناً واحداً ، وأن من استشهد منهم فى سبيل الآخرين تخلص روحه إلى السعادة الأبدية . ويسوقون ، لتأييد قولهم ، أمثلة كثيرة يبينون فيها أن الموت فى سبيل الإخوان أمر هين ، و « أن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ونصرة الدين وصلاح الإخوان ، فإن نفسه — بعد مفارقة جسدها — تصعد إلى ملكوت السماء ، وتدخل فى زمرة الملائكة ، وتحيا بروح القدس ، وتسبح فى فضاء الأفلاك ، فى فسحة السموات فرحة مسرورة ملتذّة مكرّمة مغتبطة[٣] »

٣ ـ مراتب الأعضاء

ليس أعضاء الجمعية فى مرتبة واحدة ، وإنما هم يختلفون فيما بينهم باختلاف السن ، واستعدادهم لقبول التعاليم ، وإدراك كنهها ، فهم يتفرّعون على أربع

(١) الرسائل : ج ٤ ، ص ٢١٥
(٢) الرسائل : ج ٤ ، ص ١١٦
(٣) الرسائل : ج ٤ ، ص ٨٩ يوردون على ذلك مثال الحكيم وزير الخيشوان مع فيروز ملك الفرس ، ومثال الحب والغواصين . ج ٤ ، ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩